

دور التوجيه في بناء الحضارة من منظور مالك بن نبي

The role of orientation in building civilization from Malek ben Nabi's perspective

د. قريبي مشري¹

المركز الجامعي آفلو

abouyacine736@gmail.com

تاريخ الوصول 2020/08/27 القبول 2020/11/08 النشر علي الخط 2021/09/15

Received 27 /08/2020 Accepted 08/11/2020 Published online 15/09/2021

ملخص:

تتناول الدراسة علاقة التوجيه بالحضارة من منظور مالك بن نبي، من خلال تساؤله عن شروط الإقلاع الحضاري المتمثلة في الإنسان، التراب والزمن، فهذه العناصر لا تمثل حضارة، وإنما هي خام للحضارة، متخذة الفكرة الدينية كمحفز لها، وهذه الأخيرة تحتاج إلى من ينقلها من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل، والمتماثل في عملية التوجيه، وعليه نتساءل كيف يساهم التوجيه في بناء الحضارة عند مالك بن نبي؟ وما أسسه ومآلاته؟ وما هي سلبياته وإيجابياته؟ وقد ذهب بن نبي إلى أن التوجيه يعتمد على أسس ثلاث متمثلة في القوة سواء المادية منها أو الروحية، والمنهج السليم كوسيلة لتحقيق الغاية، والهدف المنشود المتمثل في بناء الحضارة، وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج التاريخي، من أجل تقصي فكرة التوجيه عبر تاريخ الإنسانية الطويل، مركزين على بعض النماذج التي نرى أنها تخدم الموضوع، ومن جهة ثانية اعتمدنا المنهج التحليلي النقدي، موضحين أفكار الفيلسوف، ومحللين لأطروحاته، مع مناقشتها والنظر إلى أي مدى يمكن أن تعتبر كمنهج يستطيع أن يكون عاملاً من عوامل الإقلاع الحضاري. وخلصنا في نهاية الدراسة إلى أن أفكار بن نبي تعتبر مشروعاً مستقبلياً يمكن شعوب العالم الإسلامي من الإقلاع الحضاري، من خلال تأكيده على وحدة الأمة، والتركيز على الهوية والابتعاد عن التقليد، والاستثمار في الإنسان، وما أحوجنا اليوم أن نستفيد مما طرحه مفكروننا، لأن أساس الحضارة هو الفكر النابع من الهوية، وليس على أساس التقليد.

الكلمات المفتاحية: الإقلاع الحضاري، الهدف، الهوية الثقافية، المنهج، القوة.

Abstract:

The study addresses the relationship between orientation and civilization from the point of view of Malek ben Nabi, by asking questions about the conditions in which civilization took off from human beings, dust and time. These elements do not represent civilization, but they are at the origin of civilization. By the force of existing already, represented in the process of orientation, and thus asking how orientation contributes to the construction of civilization for Malek ben Nabi? What are its advantages and disadvantages? Ben-Nabi argued that orientation is based on three foundations of power, both physical and spiritual, and on the rational approach as a means of achieving the goal and building the civilization. This study builds on the historical method to explore the idea of orientation through history. On the other hand, we have adopted a critical analytical approach, explaining the ideas of the philosopher and the analysts of his thesis, by discussing and examining to what extent they can be considered as a method that can be a factor of civilization. We concluded at the end of the study that Ben-Nabi's ideas are a future project that allows the people of the Islamic world to leave civilization with a focus on the unity of the nation and focusing about identity, about tradition, about investing, and about what we need today to take advantage of what our thinkers have proposed. It is thought that this stems from identity and not from tradition.

Keywords: the aim, Cultural privacy, method, Power, Take off civilization

¹ المؤلف المرسل: قريبي مشري البريد الإلكتروني: abouyacine736@gmail.com

1. مقدمة:

تختلف حياة الإنسان عن تلك التي لدى الحيوان، فهذا الأخير يولد على الفطرة، لا يحتاج إلى رعاية أو توجيه كبيرين، فبمجرد خروجه إلى الوجود يبدأ في الاعتماد على نفسه، فيتواصل مع أبناء جنسه، عن طريق الإشارات الصوتية والحركية، يعتمد على نفسه في غذائه وحركته والدفاع عن نفسه، بينما الكائن العاقل فإنه يولد عاريا من كل أنواع التجربة، فهو يحتاج إلى الرعاية والتوجيه والخبرة من غيره. ولذلك نجد مفارقة كبيرة في المسار الحضاري بين الإنسان والحيوانات الفاقدة لعملية الترشيد والتوجيه، هذا من جهة ومن جهة أخرى نجد أنها تختلف حتى بين الشعوب بعضها ببعض. فالبعض أمسك بزمام الحضارة وسار خطوات جبارة نحو التطور والرقى، في حين بقيت بعض الشعوب تحت سفح الجبل قرونا طوال تعاني التخلف والاستعمار والجهل والفقر لا شيء إلا لأنها افتقدت وتفتقد إلى آليات التطور التي تعتمد نفسها على الرعاية والتوجيه.

من الفلاسفة المعاصرين الذين أدركوا مكمّن الخطر، ووقفوا على أسباب تخلف الشعوب خاصة منها شعوب العالم الإسلامي الفيلسوف الجزائري مالك بن نبي (1905-1973) الذي تدور فلسفته حول مشكلة الحضارة، متسائلا ألم يحن الوقت لكي نستيقظ من السبات الطويل، الذي إن طال تحول من نوم عميق إلى موت أكيد، متأثرا في ذلك بالسؤال الذي طرحه الأمير "شكيب أرسلان" لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟، ولعل من أكثر أسباب التخلف التي يركز عليها الفيلسوف الجزائري، مشكلة الاستعمار، الجهل والتخلف، الذي سلط على الأمة الإسلامية خاصة في إحدى أكبر وأهم شعوبها، الأمة الجزائرية منذ 1830، هذا على المستوى الخارجي أما على المستوى الداخلي فهي تلك الروح الانهزامية المتمثلة في الخوف والجن والتي بليت بها الأمة الإسلامية، وهي ما عبر عنها بالقابلية للاستعمار، ويعدد بن نبي بعض شروط النهضة المتمثلة في الأخلاق والاقتصاد والتربية والسياسة، الجمال، لكنها كلها تحتاج إلى التوجيه، وعليه نتساءل كيف يساهم التوجيه في بناء الحضارة عند مالك بن نبي؟ وما أسسه ومآلاته؟ وما هي سلبياته وإيجابياته؟

2. دلالة التوجيه:

2. 1. الدلالة اللغوية:

التوجيه لغة من الفعل وجهه، وقد جاء في لسان العرب: "وَجَّهْتُ الرِّيحَ الحصى توجيها إذا ساقته، ويقال قاد فلان فلان فوجه أي انقاد وأتبع"²، وكأن التوجيه حركة خارجية عن الإنسان تقوده إلى غاية معينة، و"الْوَجْهَةُ وَالْوَجْهَةُ هي الموضع الذي نتوجه إليه، ونقصده، وضلَّ وجهه أمره أي قصده"³، فهي المقصد والغاية والهدف، ثم إن "وجه كل شيء مستقبله"⁴، وعليه فالتوجيه لغة حركة خارجية تدفع الشيء نحو هدف مستقبلي، وقد جاء في المعاجم الأجنبية أنّ التوجيه يعني القيادة والإرشاد نحو غاية ما، كتوجيه الطفل نحو مهنة تتناسب وطبيعته، وغالبا ما ترتبط بالنصيحة⁵. ومنه فليس هناك اختلاف بين المفهوم العربي والأجنبي من حيث أنّ التوجيه مرتبط بالقيادة والإرشاد، والنصيحة في اتجاه المستقبل.

² - ابن منظور أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، المجلد 13، دار صار بيروت (لبنان)، د(ط، س)، ص 558.

³ - المرجع نفسه، ص 556.

⁴ - المرجع نفسه، ص 555.

⁵ Robert paul, Petit robert, Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française, Dirigée par A.Rey et J.Rey-Debove, Société Du Nouveau Littre, 1979, p1323.

2.2. الدلالة الاصطلاحية:

إنّ ما تتفق عليه المعاجم والموسوعات بأنّ التوجيه هو عملية منظمة، يقوم بها الإنسان من أجل إرشاد غيره ممن تعوزه الخبرة والدراية، نحو هدف معين، بغية تحسين وتهذيب سلوكه، ومساعدته على مواجهة الصعاب، وتحقيق غاية أفضل مستقبلياً، وعليه فقد جاء في الشامل في قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية، أنّ التوجيه هو الإرشاد ومنه فهو "نظام أو عملية تعليمية فيها جهود منظمة بقصد التأثير على الأفراد لتعديل سلوكهم في أحد المجالات بما يتلاءم مع ظروف مجتمعهم"⁶، وتركز هذه المعاجم على التوجيه التربوي والمهني، المتمثل في مساعدة المتعلم في اختيار نوع الدراسة، والتكيف مع ظروفها، وكيفية مواجهة الصعاب التي تعترضه، وما الوسائل التي تساعده على تحقيق النجاح مستقبلاً. وقد جاء في معجم علم النفس والتربية أنّ التوجيه: "هو مساعدة الفرد على التكيف وفقاً لأوضاع المجتمع وظروف البيئة بقصد تمكينه من أن يعيش في المجتمع حياة مستقرة سليمة"⁷، وليس بعيداً عن هذا ما ذهب إليه لالاند "André Lalande" (1867-1963) بأنّه "اختيار مهنة لفرد ما يجري بواسطة روائز مختارة لهذه الغاية"⁸، وعليه يمكن أن نبين بأنّ التوجيه عملية منظمة تنطلق من ذات فاعلة إلى أخرى منفصلة، ترسم وتبين لها الطريق السليم الذي ستسلكه، مراعية في ذلك القدرات التي تمتلكها هذه الذات المنفصلة، من أجل تحقيق هدف مستقبلي ناجح، مع الاقتصاد في الجهد والوقت، و التقليل من الأخطاء التي ارتكبتها الذات الأولى في مرحلة تكوينها.

3. تاريخية التوجيه:

إنّ فكرة التوجيه ليست جديدة على المجتمعات البشرية، بل هي قديمة قدم الإنسان ذاته، فالديانات السماوية والمعتقدات الطبيعية جميعها اهتمت وركزت على فكرة التوجيه، توجيه الإنسان نحو غاية، من خلال التركيز على المعبود، والالتزام بنظام وتعاليم معينة، فالتعاليم الكونفوشيوسية والمعتقدات المصرية، والحكمة الصينية ما هي إلا توجيهات دينية، اجتماعية سياسية، اقترحتها أصحابها بغية سعادة البشرية، وليس أدلّ على ذلك المدن الفاضلة التي تصورها أصحابها فهي تمثل قمة التوجيه، وخير مثال على ذلك جمهورية أفلاطون حيث تصور دولة مثالية في كتابه الجمهورية، معترضا فيها على الحكومات الفاسدة ويصرح فيها: "إنّ السلطة لا يجوز إسنادها إلى القوة الوحشية الطامعة، وإنّما يجب إسنادها إلى القوة المصحوبة بالتعقل والعلم بالسياسة، والمهارة التي تمكن صاحبها من تحقيق المدينة الفاضلة"⁹، ويعتبر أفلاطون الفرد صورة مصغرة من الدولة ولذلك يذهب إلى أنّ "الاجتماع ظاهرة طبيعية في حياة الناس، فهو وليد شعور الفرد بالحاجة إلى الآخرين لتأمين ما يحتاج إليه من غذاء ومسكن"¹⁰، ويؤكد على أنّ غاية الدولة هي تهيئة الظروف لتحقيق الفضيلة، والتي لا تحصل إلا بالعلم، والعلم لا يحصل إلا بالتربية، وهذه الأخيرة لا يمكن أن تترك للفرد وحده، بل لابد أن تقوم الدولة على ذلك، لأنّ غايتها هي تكوين أفراد خاضعين لها، بل على الفرد أن يفعل كل شيء من أجلها، "إن الفرد للدولة ولا يوجد خارج الدولة ولا يعمل ضد الدولة ولتحقيق هذا يجب أن يفصل من

⁶ - الصالح مصلح ، الشامل في قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض (السعودية) ط1، 1999، ص249.

⁷ - السيد عبد العزيز ،معجم علم النفس والتربية، ج1، الهيئة العامة للمطابع الاميرية، القاهرة(مصر)، دط، 1984، ص75.

⁸ - لالاند أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية معجم مصطلحات الفلسفة النقدية والتقنية، المجلد2، ترجمة أحمد خليل، دار عويدات للنشر والطباعة بيروت(لبنان)، دط، 2008، ص923.

⁹ - مرجبا محمد عبد الرحمن ، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ط3، 1983، ص142.

¹⁰ - المرجع السابق، ص143.

ميلاده عن والديه ويسلم إلى الدولة¹¹. وعليه فأفلاطون قد وضع أسسا وقواعد توجيه الفرد من أجل أن يكون مواطنا صالحا داخل المجموع، وصالح المجموع هو صلاح الفرد ذاته.

وتعتبر تعاليم الكنيسة غاية في التوجيه والإرشاد، تعاليم تذل الشخص، وتملأه بالخوف، وترسخ فيه فكرة الإيمان، فغاية الكنيسة هي تكوين خدام للرب، من خلال كبح نزوات الأفراد وتعذيب النفس بالصوم والجوع ولبس الخشن من الثياب، وإجهاض الجسم بالعمل، والتعلق بالآخرة، ونبذ ملذات الدنيا، وتحريم الغنى، من خلال التخلي عن الثروة للدير لمن أراد أن يكفر عن خطيئته، ويؤكد "توما الأكويني" Thomas Aquinas (1225-1274م)، على أن الغاية من التجمع البشري تقوم على أساس المصالح، والخدمات والمنافع المتبادلة من أجل حياة كريمة، وتحقيق المصلحة العامة، فهو يرى أن: "المجتمع بشكله الطبيعي له غاياته وأهدافه، ويقوم على تبادل الخدمات والمنافع من أجل الحياة الطيبة، فهو يحتاج إلى هيئة حاكمة تدير شؤونهم وعلى ذلك فالحكم أمانة في عنق الجماعة كلها، وسلطة الحاكم مستمدة من الله بقصد تنظيم حياة سعيدة للبشر غير أن السلطة يجب أن تكون محدودة وتسير أعمالها وفق القانون"¹²، فهو يؤكد على أنه لحفظ حياة الإنسان، ولمواجهة الشر، وإزالة العقبات وتنظيم الميول، وتعليم الصغار أو حتى الكبار، وللقضاء على الصراع المترتب عن اختلاف الميول المتعارضة، فإنه لا بد من وضع قانون ينظم حياة الناس ولذلك فهو يرى: "أن الأشخاص المختلفين إنما يشكلون أحكاما مختلفة على تصرفات الإنسان ومن منطلق هذه الحقيقة تنتج القوانين المختلفة، والمتعارضة"¹³، فالقانون عنده ضروري لأنه ينظم العلاقة بين الفرد والمجتمع. فهو يؤسس للفضائل المدنية وهذه الأخيرة توجه الناس بعيدا عن ميولهم الأنانية. فأهمية هذه القوانين هي توجيه وتعليم الناس عادات الفضيلة المدنية، ولا يكون ذلك إلا باحترام الحدود الأخلاقية، ولن يستمر هذا إلا بتقاسم الاعتقاد بتعاليم الكنيسة، أو الوحي الديني، وهكذا فالأفراد عليهم أن يجعلوا من تعاليم الكنيسة مركزا لحياتهم، فالعدل والأمن لا يحدث إلا عندما يتماسك أعضاء المجتمع بالالتزام بالقانون السماوي.

وتذهب التربية الإسلامية إلى إعداد الفرد المسلم وتوجيهه على المستوى العقائدي، التعبدي، السلوكي والإدراكي، توجيهها صحيحا يتماشى والتعاليم الدينية التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية من جهة وما اجتهد فيه علماء الأمة من جهة ثانية، بغية تحصيل السعادة في الدنيا والآخرة، كما تحاول أن تجنب الناشئ جملة من الانحرافات والحد من الشهوات. فالإنسان عند عبد الرحمن بن خلدون (1332-1406)، خاضع في علاقاته إلى القوانين الاجتماعية في جميع أمور حياته ومعاشه وعمرانه، وهذه القوانين الاجتماعية تحتاج إلى فكر لينظمها ولا يكون ذلك إلا بالصنائع لحصول ما ليس لديه من إدراكات ومعارف ولذلك تكون الحاجة إلى الآخر الذي سيستفيد من معرفته وتضامنه معه، كما أن هذا الآخر الذي هو ضروري لوجوده، يشكل خطراً عليه لما في الطبيعة الإنسانية من الظلم والعدوان، و هذا التضامن يقل تدريجياً بمرور الزمن ولذلك كانت الحاجة ماسة لكبح الأنانية والظلم ولا يتم ذلك إلا بتوجيه سلطة الأقوى لدفع العدوان، ويعبر عن ذلك قائلاً: "ثم إن هذا الاجتماع إذا حصل للبشر كما قرناه وتم عمران العالم بهم فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم"¹⁴، فبدون قوة وسلطة لا يمكن أن يحدث استقراراً ولا يمكن للأفراد أن يتمتعوا بحقوقهم، ويعبر "حسين أحمد عبد

¹¹ - بدوي عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة، ج1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت (لبنان)، ط1، 1984، ص184.

¹² - توما الأكويني، نقلا عن مولود زايد الطيب، علم الاجتماع السياسي، منشورات السابع من أبريل ليبيا، ط1، 2007، ص37-38.

¹³ - توما الأكويني، نقلا عن ستيفن ديلاو، التفكير السياسي والنظرية السياسية والمجتمع المدني، تر، ربيع وهبة، د (ط، س)، ص132.

¹⁴ - ابن خلدون عبد الرحمن، مقدمة بن خلدون، مراجعة عبد الباري محمد الطاهر، تحقيق أحمد جاد، مؤسسة قصر البخاري للنشر والتوزيع، الجزائر، د(ط، س)، ص

الحמיד أحمد رشوان" في كتابه القيادة قائلا: "فبدون وجود السلطة يتم الاضطراب والفوضى لأنّ الغرائز الخبيثة تتفوق على النزعات الطيبة، وأبرز أهميتها في الحفاظ على المجتمع وبنائه واستمراره، وتلك سمة نوعية خاصة بالجنس البشري"¹⁵. وعليه فالسلطة والقانون هما أساس توجيه المجتمعات نحو غايات معينة، لأنّ الأفراد إذا تركوا بدون توجيه تميزت الفوضى في سلوكياتهم.

وتركز الفلسفة الماركسية على فكرة التوجيه وذلك من خلال تنمية الإيديولوجية من جهة وتقوية الدولة من جهة ثانية، ولذلك فقد استخدم الشيوعيون كل الوسائل من أجل بناء مجتمع خال من الطبقة مبني على العدالة الاجتماعية، ليس فيه رحمة ولا شفقة، وقد تمثلت هذه الوسائل في: رياض الأطفال، المدارس، الجامعات، المعاهد والنقابات العمالية، والتعاونيات الفلاحية، والمنظمات الشبابية والطلابية... الخ، وقد عبّر "جورج كاونتس" "G.gaunts" عن ذلك قائلا: "إنّ البلاشفة قد تفوقوا في نظرهم إلى التعليم على زعماء أي مجتمع آخر على ظهر الأرض، ولا تقل عنايتهم الشديدة بأساليب التعليم ومحتويات البرامج المعدة لتشكيل عقول الشباب والكبار عن عنايتهم بعتاد قواتهم المسلحة، أو بنظامهم الاقتصادي لأنهم يرون أنّ التربية سلاح بتار في قضية الشيوعية، ولولا ما أنشأه البلاشفة من هيئات تعليمية واسعة النطاق لما كان لهم من القوة ما يستمتعون به اليوم"¹⁶. فالتربية ووسائل الإعلام المتنوعة توجه الفرد نحو جملة من التعاليم الشيوعية، المتمثلة في التعاون الاجتماعي، وحب العمل، وكراهية المستغلين، والدعاية ضد الدين، وعدم التمييز بين الجنسين في بناء المجتمع، ويتم ذلك بتمجيد رموز الدولة المتمثلة في العلم والأناشيد الوطنية والحماسية، والدورات التطوعية، والمؤتمرات الشعبية، كما أنّه من أهم وسائل التربية والتوجيه في النظام الشيوعي، ووسائل الثواب والعقاب، سواء معنويا أو ماديا مثل ما يناله من رضا أو إنكار جماعي، والتي ستؤثر على مستقبل الفرد سياسيا، وتركز على الجانب السلوكي في العمل التربوي، والذي يكون معياره ما مدى اندماجه أو عدم اندماجه مع الجماعة. والهدف من هذا كله كما يعبر عنه "عبد الغني عبود" هو: "الاهتمام بالتربية الخلقية، وهو أن يشب الصغير وقد تشرب التقاليد الشيوعية، وتحلى بأخلاقها، وعرفها نظريا كما مارسها عمليا مما يسهل للدولة والحزب مهمتهما"¹⁷. وعليه فالتوجيه مرتبط بحياة المجتمعات، وأساس قوي في بناء الحضارات.

4. التوجيه عند مالك بن نبي:

يبين مالك بن نبي أنّ أي عمل لا يخلو من التوجيه، سواء أكان هذا العمل بسيطا أو معقدا، "في كل سفر يجب أن نعلم أية جهة نقصد، وبأي زاد نتزود"¹⁸، فمسألة التوجيه عنده مرتبطة بشروط الحضارة، بحيث لا يمكن لأية أمة أن تنهض من السبات والتخلف إلا إذا توفرت شروط إقلاعها، ويبين أنّ زاد الحضارة يتركب من ثلاثة عناصر هي: الإنسان + التراب + الوقت، إلا أنّ تجمع هذه العناصر لا يولد بالضرورة المنتج الحضاري وإلا لتطلب بروز هذه العناصر وجود الحضارة في كل عصر ومصر، فهذه العناصر لا يمكنها أن تتحرك إلا بمحرك، وهذا المحرك، هو الفكرة الدينية التي هي بمثابة مركب لهذه العناصر الثلاثة، فكما أنّ اجتماع الأوكسجين والهيدروجين لا يشكل بالضرورة الماء تلقائيا إلا بتدخل مركب، فإنّ هذه العناصر لا تنتج حضارة إلا بمركب، وعليه فالفكرة الدينية تقوم مقام هذا المركب، وهذه الفكرة قد اقتبسها المفكر الجزائري من الألماني "هيرمان دي كيسرلنج" "H.D.Kesserling" في كتابه "البحث التحليلي لأوروبا" الذي يبين أنّ أوروبا

¹⁵ - رشوان حسين عبد الحميد أحمد، القيادة دراسة في علم الاجتماع النفسي والإداري والتنظيمي، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، دط، 2010، ص35.

¹⁶ - جورج كاونتس، تحدي التربية السوفياتية، نقلا عن عبد الغني عبود، الإيديولوجيا والتربية، دار الفكر العربي، مصر، ط3، 1980، ص289.

¹⁷ - المرجع السابق، ص300.

¹⁸ - بن نبي مالك، شروط النهضة، ترجمة: عبد الصابور شاهين، عمر كامل مسقاوي، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، سوريا، د ط، 1986،

لم تتطور إلا بعد أن تجسدت فيها روح المسيحية، فيقول: "إنّ الروح المسيحية ومبدأها الخلقى هما القاعدتان اللتان شيدت عليهما أوروبا سيادتها التاريخية¹⁹. وعليه فالإنسان يمثل قوة، هذه القوة إذ استغلت الاستغلال الحسن اثمرت وأنتجت، ولا يمكن أن يحدث هذا إلا بعملية التوجيه العقلي والعلمي، "فهذا الجهاز حين يتحرك يحدد مجرى التاريخ نحو الهدف المنشود"²⁰، ويمثل التراب قوة أساسية في الحضارة إلا أنّ قوته حسب بن نبي مرتبطة بقوة من يعيش عليه (الإنسان)، لكن هذا لا يعني أنّ التراب لا يشكل كل تلك الثروات الطبيعية والاقتصادية وخيرات الأمم من معادن، وجبال، وأشجار وبحار وأنهار... الخ، فهذه كلها تشكل طاقة عظمى لمن يحسن استخدامها، إلا أنّها تشكل خطراً على الذي لا يعرف قيمتها، فكم من شعوب تعيش فوق جنات وأنهار، ولكنها لا تعرف قيمتها وتبذل الجهد في استثمارها، فتعيش أبد الدهر في الضعف والخذلان والتبعية، وقد يصدق عليها قول الشاعر:

كالعيس في البداء يقتلها الظمأ *** والماء فوق ظهورها محمول.

ومن جهة ثانية، فقد جنت هذه الشعوب على أنفسها بسبب توفر هذه العوامل الطبيعية، فقد كانت محل الأطماع الاستعمارية، التي استنزفت ثرواتها، ولم يتبق لها إلا القشور. ويمثل الوقت أو الزمن، أهم عنصر من عناصر الحضارة، إذ أنّ الشعوب التي عرفت كيف تستغل الوقت استطاعت أن تسير في مدار الحضارة بينما بقيت في الأسفل تلك التي لم تدرك قيمة الوقت، فكل لحظة يعيشها الإنسان ويستغلها تنقله من حالة إلى أخرى، أما الذي لا يستطيع تقدير ذلك فإنه يبقى في حالة الجمود والركود.

وعليه فهذه العناصر مجتمعة لا تمثل الحضارة وإنما تمثل خام الحضارة تحتاج إلى من ينقلها من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل، وهذه العناصر تحتاج إلى عملية التوجيه التي يعرفها بأنها "قوة في الأساس وتوافق في السير ووحدة في الهدف" وعلى هذا الأساس يصبح التوجيه عملية منظمة، تعتمد على التخطيط وتجنب الإسراف في الجهد والوقت، ويعتمد على أسس ثلاث.

4.1. أسس التوجيه:

ومن خلال هذا المفهوم يتبين أنّ التوجيه يعتمد على ركائز ثلاث هي القوة كقاعدة أساسية لعملية الإقلاع لأنّ فاقد الشيء لا يعطيه، والمنهج كوسيلة وطريقة للعمل، وتوحيد الجهود، والهدف كغاية مبتغاة، المتمثلة في النهضة والبناء الحضاري، ويمكن أن نفصل ذلك كالتالي:

4.1.1. القوة:

ينطلق بن نبي في مفهومه للقوة من خلفية دينية مستندا في ذلك على الآية الكريمة ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (سورة الأنفال، الآية 60)، وتتعدد القوة ما بين قوة العقيدة والأخلاق، وقوة العلم والمال، وقوة التماسك الاجتماعي، ومنهجيا يمكن تقسيمها إلى القوة المعنوية والمادية:

أ.1 - القوة المعنوية: يمكن تجسيدها في قوة العقيدة الدينية، و قوة الأفكار الإنسانية:

أ.1.1. قوة العقيدة: وهنا يشير بن نبي إلى أنّ أهم وأبرز الأفكار هي الفكرة الدينية التي حولت مجتمعا جاهليا تابعا إلى مجتمع إسلامي متبوع، يتمتع بالسيادة والريادة، أساس هذه الفكرة العامل الروحي المتمثل في العقيدة، التي كانت دافعا إلى بناء حضارة إسلامية،

¹⁹ - هيرمان دي كيسرلنج، نقلا عن مالك بن نبي شروط النهضة، (م س)، ص 57.

²⁰ - المصدر نفسه، ص 78.

ولذلك يؤسس الدورة الحضارية انطلاقاً من المرحلة الروحية التي أثرت تأثيراً إيجابياً في الإنسان العربي، نفسياً، اجتماعياً، أخلاقياً، فنياً، وثقافياً مقدماً أمثلة من التاريخ الإسلامي. فالفكرة الدينية هي التي حولت عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الضعيف من راع للغنم بشعاب مكة، إلى قارئ للقرآن يتحدى به صناديد قريش، وهي التي حولت بلال بن رباح رضي الله عنه من عبد مملوك ينقاد بأوامر سيده إلى عبد لله يقف في وجه الظلم والطغيان، متحدياً سلطة العبودية، وهو لا يعرف إلا كلمة "أحد... أحد"، وهي التي حولت رعي بن عامر رضي الله عنه من نكرة إلى رسول المسلمين إلى كسرى"، مخاطباً أياه "ابتعثنا الله لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة"، وعليه فثمة العقيدة كان لها تأثيراً إيجابياً على مستويات عدة:

- فعلى المستوى النفسي تحرر الإنسان من العبودية النفسية كالخوف والضعف والجبن، والبخل، واتصف بفضيلة الشجاعة، والتضحية بالنفس والطمأنينة، والحلم وسكينة النفس، وقوة الإرادة، ولذلك يعبر بن نبي على أنّ صيحة بلال رضي الله عنه لا تمثل الغريزة ولا العقل بل هي صيحة الروح "إنّ من الواضح أنّ هذه القول لا تمثل صيحة الغريزة، فصوت الغريزة قد صمت، ولكنه لا يمكن أن يكون قد ألغى بواسطة التعذيب كما أنّها لا تمثل صوت العقل فالألم لا يتعقل الأشياء، إنّها صيحة الروح التي تحررت من إفسار الغرائز بعدما تمت سيطرة العقيدة نهائياً في ذاتية بلال بن رباح" ²¹.

- وعلى المستوى الأخلاقي تحرر من الخمول والكسل والالتكال على الغير، ومن الرذائل بمختلف أنواعها، إلى إتقان العمل والتوكل على الله، والحفاظ على الأنفس، إنّها العقيدة التي جعلت تلك الزانية تأتي إلى النبي عليه الصلاة والسلام وتطلب إقامة حد الزنا لتظهر من الذنوب، وكأنّ العقاب هو حق من حقوقها الشرعية.

- وعلى المستوى الاجتماعي أدت العقيدة إلى التكافل والتماسك الاجتماعي بين أفراد الأمة، حتى وصل بهم الأمر إلى أن يطلب الأنصاري من المهاجر أن يزوجه إحدى زوجاته بعد أن يطلقها له، وجعل بعض الصحابة كعمار بن ياسر يحمل ثقل رجلين في بناء المسجد، وبلغ الإيثار درجة أن يفضل أحدهم غيره على نفسه حتى في أشد الظروف.

- أما على المستوى الثقافي فقد أثر المسلم بأخلاقه ومعاملاته في غيره، حتى أنّ كثيراً من الناس دخلوا الإسلام بالمعاملة وليس بحد السيف.

- وعلى المستوى الفني فإنّ العقيدة دفعت بأصحابها إلى إتقان الأعمال، والتفنن في الصنائع، وتزيين المحيط والاهتمام بالبيئة، ومراعاة الجانب الجمالي بدينا، وسلوكياً، واعتبرت العقيدة من النظافة أساس الإيمان.

فالعقيدة هي المحرر الأساس الذي غير الشعوب من حالة إلى أخرى فقد حررت الإنسان من كثير من الرذائل، والمعتقدات الفاسدة، وخاصة من الخوف سواء من العباد أو من الخوارق الطبيعية، وحتى من الموت، حررت من الكبر ومن الكراهية والحسد والبغض، تحرر من الظلم والجور والاستبداد، وعلى العموم فقد تحرر الإنسان روحياً وبدنياً.

أ. 1. 2. قوة الأفكار: يبين بن نبي أنّ مشكلة الشعوب هي مشكلة الأفكار التي تتحكم فيها، فهي التي ترفع أقواماً وتضع أخرى، فبناء الحضارات وريقها أو تدهورها، إنّما أساسه تلك الأفكار الناجحة، أو الفاشلة، معبراً عن ذلك: "إنّ مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارية، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها" ²²، ثم يبين أنّه ليس كل الأفكار الأصلية فعالة ولا كل الأفكار الفعالة صحيحة، فكثيراً ما تكون الفكرة أصيلة،

²¹ - المصدر السابق، ص 68.

²² - المصدر السابق، ص 19.

لكنها لا تستطيع أن تحدث تغييرا في المجتمع، معبرا عن ذلك: "فكرة أصيلة لا يعني ذلك فعاليتها الدائمة، وفكرة فعالة ليست بالضرورة صحيحة"²³، فكثير من الأفكار عبر التاريخ، كانت في وقتها أصيلة لكنها لم تثبت فعاليتها، كما أنّ الكثير من الأفكار بقيت حبيسة عادات ومعتقدات ولم تتحرر إلا بعد قرون، وعليه فليس كل فكرة مرفوضة، فكرة غير أصيلة، وليس كل فكرة أصيلة فعالة "التاريخ يزخر بالأفكار التي ولدت باطلة، ليس فيها أصالة لكنها مع ذلك كان لها فعالية مدوية في أكثر الميادين تنوعا"²⁴، وخير مثال على ذلك فكرة دوران الأرض عند "غاليلي"، التي لم تكن مرغوبة في عصره لكنها بعد ذلك أصبحت أساس العلوم كلها، وما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من دين جديد كان فكرة مرفوضة في بدايتها ولكنها أصبحت أساس الحضارة كلها فيما بعد. وما يؤكد ذلك هو أنّ ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية خرجت محطمة، فقيرة لا تملك شيئا، ولكنها تملك الأفكار التي أخرجتها من حالة الفقر إلى حالة الغنى نتيجة الاعتماد على الذات والإبداع، فرأس المال الحقيقي ليس هو الثروات وإنما هو قوة الأفكار "فقد بدأت ألمانيا في التحرك عام 1948 بخمسة وأربعين ماركا، وهذا مبلغ تافه في الاستثمار أما الاستثمار الحقيقي فقد كان في رأسمال الأفكار التي هي في رأس كل ألماني في تصميم الشعب الألماني، وفي الأرض الألمانية، التي كانت فقيرة محتلة من الآخرين لكنها كانت السند اللازم لكل نشاط"²⁵.

أ. 2. القوة المادية: تتمثل في الطاقة البشرية، والثروات المادية، أو ما يسميها برأس المال، مبينا الفرق بين من يعطلها ومن يستثمرها معتمدا في ذلك على ألمانيا واليابان والصين كأمثلة. إنّ القوة المادية لا تقل أهمية عن قوة الأفكار، فالطاقة البشرية، تمثل عنصرا هاما من عناصر القوة، لكن لا بد لهذه الطاقة من التوجيه، وإلا أصبحت غثاء كغثاء السيل، وخير مثال على ذلك الصين ودول آسيا، التي استفادت من توجيه الطاقة البشرية، من خلال تربية الإنسان والاهتمام به، فاستطاعت أن تتجاوز التخلف إلى البناء، كما أثبتت وجودها في ظل التنافس الحضاري، في مختلف الميادين، الزراعية، والصناعية والتجارية، ولم يتسن لها ذلك إلا بعد أن أمسكت بالآليات العلم والتكنولوجيا، التي مكنتها من تحويل الموارد الطبيعية، إلى أشياء نافعة.

إلا أنّ هذه العوامل المادية لا تكون لها قيمة إلا إذا كانت للإنسان قيمة، ولذلك نجد قيمة الموارد الطبيعية للبلدان التي تحوز التكنولوجيا والعلم وتبدعهما، أكثر قيمة من تلك التي تمتلك الموارد وتكدسها دون أن تبذل جهدا في إبداعها، فحينما تكون قيمة الأمة مرتفعة وحضارتها متقدمة يكون التراب غالي القيمة، وحينما تكون الأمة متخلفة... يكون التراب على قدرها من الانحطاط"²⁶. ثم إنّ هذه الطاقة البشرية يمكن أن تكون قوية من خلال تحكمها في الوقت، واستثماره وعدم تضييعه، فقد تعطلت الطاقات البشرية عندنا، وذلك عندما لم تعط قيمة للزمن، فيمضي الإنسان حياته في الملهي والمقاهي دون أن يلتفت إلى الزمن الذي يتسارع من حوله، فنحن نبحث عن الفرص لتضييع الوقت، بينما يسفيد غيرنا من هذه الفرص للعمل والإبداع، فقد استفادت الشعوب الغربية والصين واليابان من استثمار الوقت، فانتقلت من حالة الركود إلى اليقظة، فالإنسان إذا لم ينتهز الفرص المتاحة في وقتها، فلن يستطيع أن يعيد الزمن إلى الوراء، ولذلك يذهب ابن نبي إلى القول: "العملة الذهبية يمكن أن تضيع وأن يجدها المرء بعد ضياعها، ولكن لا تستطيع أية قوة في العالم أن تحطم دقة ولا أن تستعيدها إذا مضت"²⁷.

²³ - بن نبي مالك، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر، سامي بركة، أحمد شعبو، دار الفكر، دمشق (سوريا)، ط1، 1988، ص102.

²⁴ - المصدر نفسه، ص102.

²⁵ - المصدر السابق، ص116.

²⁶ - بن نبي مالك، شروط النهضة (م س)، ص131.

²⁷ - المصدر نفسه، ص140.

4. 1. 2 المنهج:

وهو الطريقة التي يمكن أن ننظم بها عالم الأشياء وعالم الأفكار، فالقوة لا يمكنها أن تنتج إذا لم تكن ممنهجة، وتحقيق الأهداف منوط بالتخطيط المسبق من خلال ترتيب الأولويات وذلك على حسب الإمكانيات المتاحة، فمجتمعات العالم الثالث لا تفتقر إلى القوة المادية، وإنما تحتاج إلى منهجية وقيادة راشدة تخرجها من حالة الركود والتكديس إلى حالة الإبداع والإقلاع. وعليه يذهب بن نبي إلى القول: "إنّ هدف التخطيط واضح، إنه خلق الشروط الدينامية الاجتماعية، وبعد ذلك نحدد الوسائل التي ستتولى سير تلك الدينامية الاجتماعية"²⁸، إنّ المشاكل التي نتخبط فيها دول العالم الثالث هي أنّها تعتمد كلياً على الاستيراد، ففي مجال الغذاء تعتمد على استيراد المأكولات والمشروبات، وفي مجال الصحة، تعتمد على جلب الدواء، والأدوات الطبية، كما تجلب الأغذية، والملابس، وأدوات الزينة، وسائل النقل، وبلغ بها الأمر إلى جلب حتى المناهج التربوية والاقتصادية والسياسية، وإذا كان الأمر هكذا بالنسبة إلى الأشياء فلن يكون مقبولا في المناهج والخطط، لأنّ المنهج لا بد أن يكون نابعا من الذات، يراعي الخصوصية الثقافية للمجتمع، فكما أنّ تكديس البضائع لا يصنع حضارة، فكذلك استيراد المناهج لا يحل المشاكل بل يزيد من تفاقمها فاستيرادها سيؤدي بالضرورة إلى التبعية، والنتيجة ستكون الفشل المحتوم، لأنّك لا تستطيع أن تتدين بدين غيرك، أو تلبس لباس غيرك، وتحافظ على هويتك، وخير مثال على ذلك تجربة "أندونيسيا" التي احتوت كل عناصر النجاح، من إمكانات مادية وطبيعية وبشرية، إلا أنّها منيت بالفشل، بالرغم من أنّ واضع الخطة هو العالم الألماني "شاختر" الذي كان سببا في نجاح النهضة الألمانية. فإذا كان المنهج ينجح في مجتمع فليس بالضرورة أنّه ينجح في مجتمع آخر.

إنّ عدم مراعاة الخصوصية الاجتماعية والثقافية لوضع الخطط والمناهج سيؤدي بالضرورة إلى فشلها: "فشاحت كان بلا جدال أجدر من يضع مخططا اقتصاديا مثل الذي وضعه لبلاده قبيل الحرب، لكنه خطط لأندونيسيا فوضع ضمنا خطته على قاعدة (معادلة اجتماعية)، خاصة بالشعب الألماني، وأجنبية عن الشعب الأندونيسي فما كان إذن لمخططه أن ينجح لأنّه فقد منذ لحظته الأولى شرطا أساسيا"²⁹. لذلك كان لا بد على أي منهج أو خطط تنمية أن تنطلق من واقع الشعوب، ومن خصوصيتها الثقافية والدينية، بعيدا عن التقليد الأعمى الزائف الذي يستنزف طاقات الشعوب ومواردها الطبيعية، فلا بد حسب بن نبي أن تتميز بنوع من البراغمية، ونحاول أن نبحت عن تلك الأفكار التي تؤدي إلى النجاح بالطرق السهلة والواقعية، ومن جهة ثانية ندافع عن مناهجنا الأصيلة ضد تلك الواردة، ولذلك يقول: "فليست المسألة في أن يقبل المجتمع الإسلامي أو يرفض الأسلوب العملي، هذا أو ذاك، بل أن يدافع عن عالمه الثقافي ضد روح التلقين في هذا العصر"³⁰، لماذا؟ لأنّ تلك الأفكار الوافدة إلينا من غيرنا، ليست غايتها هي أن تشفينا من الأمراض التي نتخبط فيها بل عبارة عن مسكنات فقط، لطالما سنعود إليها في كل مرة نتعرض فيها للمرض لكن دون فائدة.

فالأفكار الواردة لا تعطينا الجوهر بل القشور: "إنّ أي حضارة لا يمكن أن تباع جملة واحدة، الأشياء التي تنتجها ومشتملات هذه الأشياء، أي أنّها لا يمكن أن تبيعنا روحها وأفكارها وثرواتها الذاتية وأذواقها... فعندما نشترى منتجاتها فإنّها تمنحنا هيكلها وجسدها لا

²⁸ - بن نبي مالك، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي (م س)، ص 115.

²⁹ - بن نبي مالك، المسلم في عالم الاقتصاد، تر، عمر مسقاوي، دار الفكر المعاصر، دمشق (سوريا)، د (ط، س)، ص 8-9.

³⁰ - بن نبي مالك، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي (م س)، ص 112.

روحها"³¹. وعليه فإذا أرادت الشعوب النهضة فما عليها إلا الاهتمام بمناهجها الأصيلة وتجديدها، وتكييفها حسب واقعها، ومبدئها، أي: تقوم بعملية تحديد السلبيات والإيجابيات فتترك ما هو سلبيا منها، وتنمي وتطور الإيجابية منها، التي يمكن أن تكون محركا للشعوب، فقد قامت الحضارة الإسلامية بعملية التحديد هذه من ناحيتها السلبية والإيجابية وصدرت فيهما عن القرآن الكريم، الذي نفى الأفكار الجاهلية البالية، ثم رسم طريق الفكرة الإسلامية الصافية التي تخط للمستقبل بطريقة إيجابية وهذا العمل نفسه اليوم لازم للنهضة الإسلامية³²، وعليه فالإقلاع الحضاري مرتبط بما ينتجه المجتمع من مناهج أصيلة نابعة من صلب الواقع المعاش وليس من تلك الأفكار الواردة إلينا فهي لا تعبر عن خصوصيتنا الحضارية، وبالتالي سيكون الفشل مصيرها.

4. 1. 3. الهدف:

إنّ الهدف من عملية التوجيه هو القضاء على كل مظاهر التخلف من جهة، ومحاولة الإقلاع والنهضة من جهة ثانية، وبناء حضارة لا تقوم على الاستهلاك بل تقوم على إنتاج وسائلها بنفسها، حينئذ يمكنها أن تتحرر من كل أنواع التبعية. فالحضارة لا تصنع من خلال تكديس البضائع وجمع الثروات، والإكثار من الاستهلاك، بل تكمن في كيف نوجهها وإلى أي اتجاه نوجهها؟ "ليست الحضارة تكديسا للمنتجات بل هي بناء وهندسة، فلو أننا قصرنا نظرنا على عناصر الحضارة ومنتجاتها، فلن نرى حتما بناء المجتمع الغربي، فلن ندرك ما ترمز إليه تلك الفضائل الدائمة المتجسدة في العامل والفنان والعالم والفلاح البسيط على حد سواء، بل سننخدع بما تدل عليه أشكالها المؤقتة، كالطائرة والصرف"³³، وهو إذ يقدم التوجيه كقاعدة عامة يمكن أن تعتمد في دول العالم الثالث، مركزا على الجزائر التي تحتاج إلى التوجيه والترشيد من أجل الخروج من التبعية، ومسايرة الدول المتطورة حضاريا. فهو يهدف إلى وضع مشروع أمة تحتاج إلى الإقلاع الحضاري وبناء نهضة شاملة، بعيدا عن الفوضى والارتجالية غير المؤسسة على الأهداف. معبرا عن ذلك بقوله: "لا يجوز لنا أن يظل سيرنا نحو الحضارة فوضويا، يستعمله الرجل الوحيد، أو يضلله الشيء الوحيد، بل ليكن سيرنا علميا عقليا، حتى نرى أنّ الحضارة ليست أجزاء مبعثرة ملفقة ولا مظاهر خلافة، وليست الشيء الوحيد، بل هي جوهر ينتظم جميع أشتائها وأفكارها وروحها ومظاهرها، وقطب يتجه نحوه تاريخ الإنسانية"³⁴.

4. 2. مجالات التوجيه: ويركز بن نبي على التوجيه من خلال ما يلي:

4. 2. 1. التوجيه الثقافي: فإصلاح أي مجتمع مرتبط بثقافته التي هي الطريق الأمثل لبلوغ الحضارة، وهي تشمل جميع الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته. فالثقافة بصورة عملية هي: "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته كراسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته"³⁵، ولذلك فالهدف من عملية التوجيه هو تنظيف الثقافة مما يشوبها من عوامل الانحطاط، و تصفيتها من المظاهر التافهة، لأنّ الثقافة أصبحت عند البعض تمثل في المظهر وليس في الجوهر، فهي عندهم "طريقة ليصبح شخصية بارزة وإن زاد فعلم يجلب رزقا"³⁶، وهذه المشكلة كانت

³¹ - بن نبي مالك، شروط النهضة (م س)، ص 43.

³² - المصدر السابق، ص 81.

³³ - بن نبي مالك، وجهة العالم الإسلامي، تر، عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق (سوريا)، ط 1، 1986، ص 69.

³⁴ - بن نبي مالك، شروط النهضة (م س)، ص 159.

³⁵ - المصدر نفسه، ص 83.

³⁶ - المصدر نفسه، ص 84.

ولا تزال تعاني منها مجتمعات العالم الثالث، فطالب العلم لم يصبح يهيمه ما يتحصل عليه من معارف وعلوم، تمكنه من مجابهة واقعه، بل أصبح همه هو كيف يتحصل على الشهادة ليقطات بها، أو ليمظهر بها أمام الناس "إنّ العلم في الأعم الأغلب لم يكن آلة للنهضة بقدر ما كان زينة وأسلوباً وترفاً، ولقد رأينا في بلادنا الجزائر، كيف أنّ الفكر لم يكن حركة، وعملاً إيجابياً بل كان زخرفاً يؤخذ من باب التجميل"³⁷، ولذلك فالمجتمع الإسلامي بدلاً من أن يعالج الأمراض التي يعاني منها، كالجهل والأمية، فقد أصيب بمرض آخر هو مرض (التعلم) وهذا أصعب في علاجه من الأمراض الأخرى "وهكذا يصبح العلم مسخّة وعملة زائفة غير قابلة للصرف، وإنّ هذا النوع من الجهل لأدهى وأمر من الجهل المطلق، لأنّه جهل حجرته الحروف الأبجدية، وجاهل هذا النوع لا يُقوّم الأشياء بمعانيها ولا يفهم الكلمات بمراميتها"³⁸، وبالتالي فمشكلة الثقافة تخص المجتمع ككل، فهي دستور تتطلب الحياة، يشتمل على الأخلاق، الجمال، العمل والصناعة.

4. 2. 2. التوجيه الأخلاقي: بالإضافة إلى العقيدة الدينية، يركز بن نبي على فكرة التماسك الاجتماعي، ويعتبره قوة ضرورية للأفراد في مجتمع يريد تكوين وحدة تاريخية، فمهمة التوجيه الأخلاقي تكمن في ربط أفراد المجتمع ببعضهم ببعض، فهو يمثل قوة إبداع ودفع، إذ المنتج الحضاري ليس وليد اللحظة الراهنة، وإنما هو نتاج لتاريخ طويل، تتفاعل فيه عوامل مختلفة يحركها العامل الديني والأخلاقي، ولذلك يذهب بن نبي إلى القول: "إنّ أكبر مصادر خطئنا في تقدير المدنية الغربية أنّنا ننظر إلى منتجاتها وكأنّها نتيجة علوم وفنون وصناعات، وننسى أنّ هذه العلوم والفنون والصناعات ما كان لها أن توجد لولا صلات اجتماعية خاصة، لا تتصور هذه الصناعات والفنون بدونها، فهي الأساس الخلقي الذي قام عليه صرح المدنية الغربية في علومه وفنونه"³⁹، فالإكتشافات ما هي إلا نتيجة لمجهود علماء تجمعهم علاقات اجتماعية مسيحية، وقد مثل التماسك الاجتماعي قوة اجتماعية كان لها الأثر الواضح في الحضارة الإسلامية.

4. 2. 3. التوجيه الجمالي: يعتبر الذوق الفني عاملاً من عوامل البناء الحضاري، فالمجتمع ذو الذوق الراقي أسهل في تأسيس حضارة عكس المجتمعات الفاقدة لهذه الخاصية. فيقول: " للجمال أهمية اجتماعية هامة إذا ما اعتبرناه المنبع الذي ينبع منه الأفكار"⁴⁰، ولذلك فالتوجيه الجمالي يمثل الصورة الحسنة للمجتمعات، إنّ الجمال هو المرأة العاكسة للمجتمع، فالمجتمع يتمظهر بما يهتم به، فإنّ كان جميلاً تجلّى ذلك في حياته، وإنّ كان قبيحاً، ظهرت صورة القبح فيها، "المجتمع الذي ينطوي على صورة قبيحة لا بد أن يظهر أثر هذه الصور في أفكاره، وأعماله ومسايعه"⁴¹، فالإنسان الذي دفنت نفسه داخل الأوساخ، ولا يستطيع أن يرفع هذه القاذورات عنه، إنسان جامد جمالياً وأخلاقياً وفكرياً، ولا ينتظر منه خير ما لم يتحرك نحو رفعها وإزالتها عنه، وعليه فالتغيير يبدأ من الذات وليس من الخارج، وقد جسد مالك بن نبي ذلك في مثال الطفل الذي يرتدي الثياب البالية والقدرة، ومنه فالجمال هو المنبع الذي تنبع منه الأفكار ويتمثل في كل ما يقوم به الفرد من أعمال في تفكيره، وعمله، وسلوكه، وفي مظهره، فتأثيره عام "يمس كل دقيقة من دقائق الحياة، تذوقنا في الموسيقى وفي الملابس، والعادات وأساليب الضحك والعطاس وطريقة تنظيم بيوتنا وتمشيط أولادنا، ومسح أحذيتنا وتنظيف أرجلنا"⁴²، وعليه فهو يمثل مظهرًا من

³⁷ - بن نبي مالك، وجهة العالم الإسلامي، (م س)، ص 88.

³⁸ - بن نبي مالك، شروط النهضة (م س)، ص 84-85.

³⁹ - المصدر السابق، ص 89.

⁴⁰ - المصدر نفسه، ص 92.

⁴¹ - المصدر نفسه، ص 91.

⁴² - المصدر السابق، ص 93.

مظاهر المجتمع والحضارة، فمجتمع جميل في زيه، وفي سلوكه، وحياته، مجتمع متحضر، ومجتمع قبيح في زيه وفي سلوكه وطريقة حياته مجتمع متخلف محكوم عليه بالركود والجمود.

4. 2. 4. التوجيه العملي: فأساس تطور المجتمعات هو ما تقوم به من جهد عضلي وعقلي، والعمل في الإسلام من أسس الإيمان وعليه فالمجتمعات تحتاج إلى توجيه العمل من أجل كفاية حاجتها. فشعوب العالم الثالث لا ينقصها الجانب النظري، وإنما الجانب العملي، "إنّ العقل المجرد متوفر في بلادنا غير أنّ العقل التطبيقي الذي يتكون في جوهره من الإرادة والانتباه فشيء يكاد يكون معدوماً"⁴³، فالمشكلة الأساسية هي كيف نستفيد مما نملكه من مال ووقت وعلم، و وقت، فنحن نهدرها بدون فائدة، وهذا استناداً إلى حديث النبي عليه الصلاة والسلام: "نعمتان مغبوتان فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ"⁴⁴، وقوله: "لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره: فيم أفناه؟ وعن علمه: فيم فعل؟ وعن ماله: من أين اكتسبه؟ وفيم أنفق؟ وعن جسمه: فيم أبلاه؟"⁴⁵، إذا فهذه الالفاعلية في أعمالنا هي سبب تأخرنا، وهذا راجع إلى أننا لم نخطط لأعمالنا، ولم نحدد أهدافاً لتحقيقها، "وإذا ما أردنا حصراً لهذه القضية فإننا نرى سببها الأصيل في افتقارنا الضابط الذي يربط بين عمل وهدفه، بين سياسة ووسائلها، بين ثقافة ومثلها، بين فكرة وتحقيقها، فسياستنا تجهل وسائلها، وثقافتنا لا تعرف مثلها العليا، وإنّ ذلك كله ليتكرر في كل عمل نعمله، وفي كل خطوة نخطوها"⁴⁶، ومنه فنحن حاملون ينقصنا المنطق العملي، وحينما ندرك ذلك فإننا سنتغير من حالة الجمود إلى حالة الحركة.

4. 2. 5. توجيه رأس المال: تختلف مشاكل العالم الثالث عن تلك المشاكل التي يعاني منها الغرب، خاصة فيما يتعلق برؤوس الأموال، ويبين أنّ هناك مفهوماً خاطئاً لرأس المال ناشئاً عن عدم الفهم الدينامي لهذا المصطلح، فكثير من الأحيان نخلط بين الثروة ورأس المال، فالثروة في مجتمعنا تفهم على أنّها مكاسب الشخص غير المتحركة وغير الداخلة في العملية الاقتصادية، ويفهم رأس المال على أنّه "المال المتحرك الذي يتسع مجاله الاجتماعي، بمقتضى حركته ونموه في محيط أكبر من محيط الفرد وأقصى من المقدار الذي تحدده حاجاته الخاصة"⁴⁷، ويلعب المال دوراً مهماً في حركية الأيدي والعقول، فالمال لا تكون له قيمة عندما يكون في حالة الركود، لأنّه لا يؤدي إلى التنمية، كما لا يمكنه أن يجني فائدة إذا لم يصرف بطرق علمية عقلية، بل على العكس سيكون ضرره أكثر من نفعه مبيناً ذلك أنّ: "القضية ليست في تكديس الثروة ولكن في تحريك المال وتنشيطه بتوجيه أموال الأمة البسيطة، وذلك بتحويل معناها الاجتماعي من أموال كاسدة إلى رأسمال متحرك ينشط الفكر والعمل والحياة في البلاد"⁴⁸. ولا بد في ذلك أن نبتعد عن التقليد، ونستفيد من الأخطاء التي وقع فيها غيرنا، معتمدين على أنفسنا لكن مع اعتماد منهج سليم يكفل عدم تشتت رؤوس الأموال وإضاعتها "فالقضية إنّما هي قضية مناهج يحدد تخطيطاً مناسباً بنبي عليه حياتنا الاقتصادية ولا يكون فيه مكان لتركيز رؤوس الأموال في أيدي فئة قليلة تستغل السواد الأكبر من

⁴³ - بن نبي مالك، شروط النهضة (م س)، ص 95.

⁴⁴ - صحيح البخاري، رقم الحديث 6412.

⁴⁵ - صحيح الترمذي، رقم الحديث 2417.

⁴⁶ - بن نبي مالك، شروط النهضة (م س)، ص 96.

⁴⁷ - المصدر نفسه، ص 111.

⁴⁸ - المصدر السابق، ص 113.

الشعب، بل يجب أن يتوفر فيه إسهام الشعب مهما كان فقيراً، وبذلك يتم التعادل بين طبقات المجتمع وتنسجم مصلحة الجماعة مع مصلحة الفرد⁴⁹.

4. 3. أبعاد التوجيه:

ويمكن أن نبين مع مالك بن نبي أبعاد التوجيه المتمثلة في التربية التي من خلالها نصنع المواطن الصالح، القادر على البناء، وبواسطته نستطيع أن نضمن الإقلاع الحضاري، وإن لم يكن في الوقت الراهن فهو مشروع مستقبلي، أما في مجال الأخلاق فلا بد من العودة إلى الأصول والجذور المتمثلة في العقيدة الدينية، لأنه لا يمكننا أن نبدع ونحن نستتر بتراث غيرنا، فالأصالة أساس الحضارة، والتماسك الاجتماعي وسيلة لتقويتها، وفي المجال الاقتصادي لا بد من الاستفادة من ثروات البلاد وتوجيهها التوجيه السليم، وعدم تبذيرها، من خلال التصرف فيها بدون علم ومنهج يوجهها التوجيه الصحيح، مع مراعاة الخصوصية الاجتماعية، وعدم هدر الطاقات الطبيعية والبشرية، أما على المستوى السياسي فلا بد من وضع خطة راشدة تحقق العدالة والمساواة بين المواطنين، وتشعرهم بالمسؤولية اتجاه وطنهم من جهة والعالم من جهة ثانية.

4.4. نتائج التوجيه:

بالرغم مما يقدمه التوجيه من حسنات في إرشاد الأفراد والجماعات إلا أنه في الكثير من الأحيان يساهم في الركود الفكري، وقلة الإبداع ويقضي على المبادرات الفردية، ولذلك يدعو "برتراند راسل" "Bertrand russell" إلى الاهتمام بالفرد أكثر من أي وقت مضى، خاصة الأفراد غير العاديين لأنهم هم أصحاب الفضل في الانتقال من البربرية إلى المدنية فيقول: "لقد اعتمد كل التقدم، من فني وخلقي وعقلي، فعليا على مثل هؤلاء الأفراد، الذين كانوا عاملا حاسما في الانتقال من البربرية إلى المدنية. ولكي تتقدم هيئة اجتماعية ما تحتاج إلى أفراد غير عاديين"⁵⁰. وقد دلّ تاريخ البشرية على أنّ الأفراد قد كان لهم الدور الأساسي في تغيير مجرى التاريخ سواء على المستوى السياسي أو العلمي وحتى الديني، وليس أدلّ على ذلك ما قام به الأفراد من رسومات على الكهوف، فليس من السهل أن يكون كل الناس قد قاموا بذلك وإنما هي وظيفة يقوم بها بعض من يتمتعون ببعض الكفاءات الخاصة، وليس من السهل أن يقود كاهن قبيلة ويتحكم في زمام أمورها إذا لم تكن له مزايا تميزه عن باقي القطيع، وقد عبر راسل عن ذلك: "يبدو أنّ أولئك الذين وجدت لديهم مواهب فنية كان يسمح لهم أحيانا أن يتخلفوا في الكهوف ينقشون الصور بينما تذهب بقية العشيرة للصيد. إنّ الرئيس والكاهن لا بد أن اختارهما قد بدأ منذ زمن قديم جدا لمزايا خاصة، حقيقة أو مفترضة: فكان رجال الطب يستطيعون ممارسة السحر، وكانت روح القبيلة متجسدة بمعنى ما في شخص الرئيس"⁵¹. وقد جنت روسيا الشيوعية من خلال التوجيه على أفرادها، فقيدت حريتهم، وعطلت أفكارهم وقد كانت النتيجة الفشل والزوال للأفراد والجماعات، إلا أنه لا يمكن تجاهل دور التوجيه في رفع مستوى الوعي للشعوب خاصة تلك التي تفتقد إلى المقومات الحضارية.

5. تعقيب:

ومنه يذهب مالك بن نبي إلى أنّ العقيدة الصحيحة والقوية هي وحدها القادرة على إحياء النفوس، ودفعها إلى الإبداع والتماسك الاجتماعي، مثلما فعلت في جيل الصحابة رضوان الله عليهم، وأنّ قوة أي مجتمع ليست فيما يمتلكه من أشياء بل فيما ينتجه من أفكار.

⁴⁹ - المصدر نفسه، ص113.

⁵⁰ - راسل برتراند، السلطة والفرد، ترجمة شاهر الحمود، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت (لبنان)، ط1، 1961، ص62.

⁵¹ - المرجع السابق، ص63.

إلا أنّ مشروع مالك بن نبي الحضاري لا يزال فكرة، لم تجد طريقها إلى الممارسة الواقعية، خاصة في المجتمعات العربية، وذلك نظرا لعوائق متعددة، منها ما ذكره هو نفسه ومنها ما يمكن أن نستنتجه:

- 1 - فقد بين أنّ عوائق التقدم الحضاري والتغيير تعود إلى عاملين هما: عدم استعداد الأطر الفكرية لعملية التغيير من جهة، ومن جهة ثانية بُعد القيادات السياسية عن هذا الأمر لانشغالها بأمر أخرى تبدو لهم أنّها أساسية.
- 2 - رفض التيارات الفكرية سواء الحداثية منها أو الإصلاحية لفكر مالك بن نبي، وذلك بسبب النقد اللاذع الذي وجهه لهما: فالأولى تحمل أفكارا ممتة لم تصلح حتى في بلدانها، والثانية تحمل أفكارا ميتة عفا عليها الزمن.
- 3 - اعتقاد البعض أنّ بن نبي يخفي مصادره، وأنّ فكره ليس أصيلا بل هو مزيج من أفكار متعددة.
- 4 - عقدة النقص المسيطرة على مجتمعاتنا، لاعتقادنا أنّ الحل يأتي من الآخر، ولا يأتي من الداخل (أي: أنّ منشء الحبي لا يطرب).
- 5 - الاهتمام الزائد بالمظاهر، وإتباع سياسة الإلهاء دون التركيز على الإصلاح الحقيقي.

6. خاتمة:

وعليه ففكر مالك بن نبي على العموم، وقيمة التوجيه على الخصوص، تمثل مشروعا حضاريا مستقبليا، يؤسس قاعدة إقلاع للأمم التي طال ظلامها، إقلاعا اقتصاديا، أخلاقيا، سياسيا، فنيا وثقافيا، وليس فقط نظرية مثالية غير قابلة للتطبيق، فما أحوجنا أن نسلك هذا المسار مثلما طبقته بعض دول آسيا التي تشكل صرحا حضاريا ينافس العالم الغربي. ويمكن أن نخلص من خلال هذه الدراسة إلى أنّ بن نبي يدعو إلى:

- 1 - الاستثمار في الإنسان الذي هو رأس المال والعمل على تنمية قدراته المتعددة.
- 2 - وحدة الأمة الإسلامية التي تمثل قوة مادية (بشرية)، يجب تقويتها بالقوة الروحية من خلال العودة إلى الإسلام الصحيح، لأنّه لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح بها أولها.
- 3 - مراعاة الهوية الثقافية والخصوصية الاجتماعية لأنّ نجاح أي مشروع يتطلب الانطلاق من الذات.
- 4 - الدفاع عن مناهجنا الأصيلة المرتبطة بقيمتنا المتعددة، المؤسسة على العقيدة.
- 5 - تجنب الطرق الفوضوية والاستعانة بالمناهج العلمية العقلية.
- 6 - فتح الطريقة البراغمية، في الاستفادة من الأفكار الواقعية الناجحة.
- 7 - الابتعاد عن التقليد الأعمى، والاستفادة من أخطاء غيرنا.
- 8 - تنقية الثقافة مما يشوبها من عوامل الانحطاط، والتركيز على الجوهر من خلال التعرف على مثلنا العليا.

7. قائمة المراجع:

- ابن خلدون عبد الرحمن، تحقيق: عبد الباري محمد الطاهر. مقدمة ابن خلدون. د ط. الجزائر: مؤسسة قصر البخاري للنشر والتوزيع، د س ط.
- ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. لسان العرب. د ط. المجلد 13. بيروت: دار صادر، د س ط.
- الطيب زايد. علم الاجتماع السياسي. 1. ليبيا: منشورات السابع من أبريل، 2007.
- أندري لالاند. موسوعة لالاند الفلسفية (معجم المصطلحات الفلسفية النقدية والتقنية). ب ط. ترجمة خليل أحمد خليل. المجلد 2. بيروت: عويدات للنشر والطباعة، 2008.
- حسين عبد الحميد أحمد رشوان. القيادة دراسة في علم الاجتماع النفسي والإداري والتنظيمي. د ط. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، 2010.
- راسل برتراند. السلطة والفرد. 1. ترجمة شاهر الحمود. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1961.
- ستيفن ديلو. التفكير السياسي والنظرية السياسية والمجتمع المدني. د ط. ترجمة ربيع وهبة. د س ط.
- عبد الرحمن بدوي. موسوعة الفلسفة. 1. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1984.
- عبد العزيز السيد. معجم علم النفس والتربية. د ط. القاهرة، مصر: الهيئة العامة للمطابع الأميرية، 1984.
- عبد الغني عبود. الإيديولوجيا والتربية. 3. القاهرة: دار الفكر العربي، 1980.
- مالك بن نبي. المسلم في عالم الاقتصاد. د ط. ترجمة عمر مسقاوي. دمشق: دار الفكر المعاصر، د س ط.
- شروط النهضة. د ط. ترجمة عبد الصبور شاهين و عمر كامل مسقاوي. دمشق: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، 1986.
- مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. 1. ترجمة سامي بركة و أحمد شعبو. دمشق: دار الفكر، 1988.
- وجهة العالم الإسلامي. 1. ترجمة عبد الصبور شاهين. دمشق: دار الفكر، 1986.
- محمد عبد الرحمن مرحبا. من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية. 3. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1983.
- مصلح الصالح. الشامل في قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية. 1. الرياض: عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، 1999.
- Paul, Robert. petit robert, dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française. Société du nouveau littré, 1979